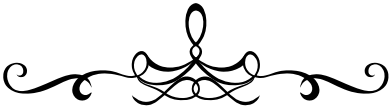

السلطان ياووز سليم خان

ولد السلطان "ياووز سليم خان" في مدينة "أماسيا" عام (١٤٦٩م)، والتي عُيِّنَ والدُه واليًا عليها من قبل، وهو الابن الرابع للسلطان "بايزيد الثاني"، واسمه الكامل "سليم شاه"، أمّه "عائشة جُلْبَهار خاتون" من أسرة "ذولقادر (*Dulkadiroğulları*)"، عاش في إسطنبول فترةً أثناء طفولته، كان مستدير الوجه، أسودَ الحاجبين، عيناه عسليّتين، كان يُشْبِه جدَّه الأكبر السلطان محمد الفاتح في قَسَمَاتِ الوجه والجسد وأنفِ الصقر.

قضى فترة إمارته في "طرابزون (*Trabzon*)"، وتلقّى فيها تعليمًا على مستوى عالٍ في العلوم والفنون و الإدارة؛ وله في كلّ ليلة وردٌ عِدّةَ ساعات يقرأ فيه كتبًا بالعربيّة والفارسيّة والعثمانيّة، إذا رأيتَه وهو في اجتهاده الدؤوب هذا حسِبتَ أنّك أمام عالِم، ولم يستطِع أحدٌ الوصول إلى ما وصل إليه من تفريقٍ تامٍّ بين الوداعة في حياته الشخصية الخاصّة والشّدة في الحكم والقيادة.

كان شاعرًا مطبوعًا حتى إن له ديوانًا بالفارسية، وكان قلقًا من وقوع الشقاق بين هذه الأمة، ومن زعزعة وحدتها واستقرارها، وأعرب عن خواطره تلك بهذه الرّباعية:

obeikandl.com

أثـــرُ الفـــرقـةِ والشقـــاق
يقلقلني ولـو كنـــت رميمًـا
أمَّتِي مَتَى تتّحـدي تنتصـري
وإن تفترقي فالفراق ممزّقي

لـم يكن ألبتّة يقبل مَن يُرسـل إليه من إسـطنبول ليعمـل "معلمًا" لديه إن لم يكن مؤهّلًا بامتياز، بل يردّه فورًا، حتى أنه دعا "حليم شلبي" العالم الشـهير آنذاك الذي تلقّـى العلم في مصر وإيران، وأنزلـه في "طرابزون"، وقرَّبَه واتخذه معلمًا له.

ياووز ونجله

كان "سـليم خـان" -الـذي لقبه العامة فـي إمارته بـ"ياووز"- متوسّـطَ القامـة، عظيـمَ الشـأن، ذا شـاربٍ أسـود كثيف ونظـراتٍ حـادّة، لا يُعنَى بالمظاهـر ولا الزخـارف والزينة، يرتدي ملابس عاديّـة، وإذا ما طلب منه ارتداء ملابس فاخرةً كالحرير والتزيّن ولو بقليلٍ من الزينة، أجابهم:

"إنما يتزيّن المرءُ ويتأنَّقُ لينالَ إعجابَنا، أما نحنُ فَلِمَنْ نتزيّن؟ النظافةُ هي أناقة كلّ أنيق".

وذات يـوم رأى ابنـه "سـليمان" -والذي اشـتهر بالقانونـي فيما بعد- يبالـغ في التزين، فلم يُخفِ دهشتَه وقال له:

"فلذةَ كبدي، تزيّنت وأسـرَفْتَ، وبالغت في الزينة، حتى إنك لم تدع شيئًا لأمك"[١٦].

(١٦) تحسين أونال، معركة الفضائل في الدولة العثمانية، أنقره ١٩٧٥م، ص ٧٣.

واشوقاه إلى وجهك يا أبتاه

كان السلطان "سليم" يهوى الرياضة، وكان ماهرًا في ركوب الخيل والمبارزة بالسيف ورمي السهام؛ وتدلّ المَسَلّات الحجريّة القائمة بحي "قاواق ميداني" في "طرابزون" أنه كان يستخدم تلك الساحة ميدانَ رماية.

كان يولي اهتمامًا بالغًا بقماش "طرابزون"، حتى أنه كان يواظب على ارتداء ملابس مصنوعة من قماش تلك المدينة، وقد كانت قوات الإنكشارية جميعًا يرتدون من القماش المصنوع في "طرابزون" على عهد ابنه "سليمان".

ولما تولى أبوه عرش السلطنةِ العثمانية، عين ابنه "سَلِيمًا" على ولاية "طرابزون" عام (١٤٨١م)، واستمرّ عليها حتى عام (١٥١٠م)، وبقي أمير سنجق -أي محافظًا- ثلاثةً وعشرين عامًا،، فأسّس قوّات الجيش النظامي من شباب "طرابزون" وما حولها، وأولى حماية المدينة اهتمامًا كبيرًا، ونظم حملات على "القوقاز" و"جورجيا" و"جركستان (*Çerkezistan*)"، وهذا ما حال بين الأمير سليم شاه وبين أن يرى وجهَ أبيه السلطان "بايزيد الثاني" مدّةَ ستّة وعشرين عامًا.

دعاء ياووز

في الرابع والعشرين من إبريل/نيسان (١٥١٢م)، تنازل الأب عن عرش الدولة العثمانية وهي أكبرُ قوّة عسكريّةٍ وسياسيّةٍ في العالم آنذاك، فتربّع ابنُه السلطان "سليم" على العرش، وقبّلَ يدَ أبيه، ونالَ بركةَ دعائه، وهنّأه كبارُ رجال الدولة وهيئة كبار العلماء، وقدموا له الولاء.

دعا السلطان "سليم" في ذلك اليوم بهذا الدعاء:

''ربّ وليتني أمر البلاد بفضلك، فيسِّر لي إدراةَ شؤونها''، فقد كانت أمور الدولة شغلَه الشاغل، وهجر من أجلها الراحة والملذات.

ويُذكر أنه لم يطلق لحيته عندما تولّى العرش خلافًا لما كان عليه الحكام العثمانيون.

شهدت سنواتُ حكمه الأولى صراعًا بين الأمراء على السلطة؛ وفي الثالث والعشرين من أغسطس/آب عام (١٥١٤م) شنَّ هجومًا على "الشاه إسماعيل" الحاكم الصفوي الشيعي، الذي هدّد بالاستيلاء على حدود الدولة الشرقيّة، وأرسلَ أعوانَه إلى ربوع الأناضول لإثارة الفتنة بين الشعب، ومُنِيَ "شاه إيران" بهزيمة نكراء في "جالديران (*Çaldıran*)" أمام جيوش العثمانيّة، واضطرّ إلى الفرار تاركًا تاجَه وعرشَه وعائلته أيضًا، وتحققت بهذا النصر وحدةُ الأناضول، وفتحت السبيل أمام الدولة العثمانية نحو الجنوب، فأصبحت "وان (*Van*)" و"بيتلس (*Bitlis*)" و"ديار بكر (*Diyarbakır*)" و"أرزنجان (*Erzincan*)" و"بايبورت (*Bayburt*)" و"أرضروم (*Erzurum*)" و"مرعش (*Maraş*)" ومنطقة "البستان (*Elbistan*)" تحت الحكم العثماني، كما مهد له هذا النصر الطريق نحو الشرق الأوسط، فاتجه إلى مدينة "تبريز"، وفتَحَها.

القرار الإستراتيجي

في مطلع ربيع عام (١٥١٦م) كلف السلطان "ياووز سليم" الصدر الأعظم "سنان باشا" بحملةٍ عسكريّةٍ على رأس جيش قوامه أربعون ألف

جندي، وأمَره بالزحف نحو منطقة "نهر الفرات" عبر طريق ولاية "مرعش"؛ وعندما علم سنان باشا بالحشودِ والوحداتِ العسكريّةِ المصريّةِ التي بُعثت من قِبل سلطان مصر على الحدود بين البلدين رأى أنه من الأفضل عدم التقدّم بقوّاته نحو "الفرات"، فاجتمع "ياووز" بديوانه لدراسة ما ينبغي فعله -كان ذلك إثر ورود خبر من الصدر الأعظم عن مناصبة مصر العداء للدولة العثمانية-، واتّخَذَ الاستعدادات اللازمة للتصدّي للحِراك الفارسيّ والمملوكيّ ضدّ الدولة العثمانيّة.

وكان من الممكن السيطرة على مناطق الجنوب الشرقي لدولة المماليك؛ لذا كانت هذه الأمر في نظر السلطان "سليم" مهم يجب تنفيذه.

وفي تلك الأثناء قام "قانصوه الغوري" سلطان مصر بحبس كل من "زيرك زاده خوجه ركن الدين أفندي" و"قره جه باشا" اللذين جاءا إلى حلب لإيصال الرسالة من سلطان "سليم" إلى سلطان مصر، رغم منافاة ذلك للقوانين الدولية، ثم أفرج عنهما إثر معاهدة تم توقيعها بين العثمانيين والفرس، كان هذا التصرف من الخطورة بمكان حتى إنه ليعد سببًا للحرب بين الدولتين.

وفي تلك الحقبة كانت تسود في مصر حالة من النزاع، سواء بين ذوي المناصب العليا أم بين الأمراء، وكان الشعب يتشوّف لحاكم عادل، فكتب "خير بك" نائب والي حلب و"جانبردي الغزالي" وقضاة حلب رسالةً إلى ياووز سليم يدعونه فيها إلى مصر.

هذا علاوة على أن العلامة الأستاذ "محمد شلبي" من رجال الديوان كان يزعم أن الدولة العثمانية أحقّ بالخلافة والحرمين الشريفين -وهما

أهـم ما يميز القيادة الإسـلامية-، وكان العالم الإسـلامي على قناعة بهذا أيضًا فما كان من "ياووز" إلا أن اتخذ قرارًا بالحملة على مصر(١٧).

الرؤيا الصادقة

يُروى أنّ السـلطان "سـليمًا" لما قرّر الحملة على مصر رأى النبي ﷺ في المنام، ذَكَرَ "خواجة سـعد الدين" في كتابه "رسـالة سـليم خان" رؤيا نقلها عن والده "حسن جان" نديم السلطان "سليم"، قال:

- قـال لـي والدي "حسـن جان": إن السـلطان لم يكن ينـام الليل إلا قليلًا، إما أن يقرأ كتابًا أو يتفكّر في أحوال العالم، وذات يوم أخذني النوم فلم أستطـع أن أذهب لخدمته، ولما صليت الفجر أتيته فقال:

- لم أرك الليلة، أين كنت؟

فاعتذرت قائلًا:

- لم أنم منذ أيام، وهذا ما منعني المجيء لجلالتك هذه الليلة.

فقال:

- هات ما عندك، ماذا رأيت الليلة؟

فقلت:

- لا شيء، أضغاث أحلام.

فقال:

(١٧) ضياء نور أقسون، التاريخ العثماني، إسطنبول ١٩٩٤م، المجلد الأول، ص ٢٢٠.

- أيعقل أنك لم تر رؤيا وقد أمضيت ليلك نائمًا؟ هات ما عندك.

فأقسمتُ أني لم أرَ شيئًا.

هز رأسه وقال:

- واعجبا!

وبعد قليل بعثني مولاي السلطان إلى الباب الذي يقف أمامه القائم بأعمال السلطان "حسن آغا[١٨]" لأمرٍ ما، نظرتُ فإذا "محمد آغا" رئيس الخزانة الذي تربطني به المودة ومسؤول المخزن يتحدثان مع آغا القصر؛ وقد كانت تظهر على وجه "حسن آغا" ملامح الدهشة والحيرة مطأطأ رأسه وعيناه تزرفان بالدمع، مع أنه كان رجلًا يتّسم بالهدوء، إلا أنني رأيتُه في حالة غريبة، فاستفسرت عما به وأنا أتساءل:

- هل تُوفّي أحدُ أقاربه يا ترى؟

أجابني:

- لا، لا شيء من هذا القبيل؟

وسرعان ما توجّه إليّ آغا الخزينة قائلًا:

- يا أخي، رأى آغا الليلة رؤيا، وهو في حيرةٍ منها!

ثم توجهت إلى حسن آغا وقلتُ متعجّبًا:

- أسألك بالله ماذا رأيت؟ فقد سألني السلطان بإلحاحٍ: هل رأيتُ رؤيا الليلة؟

(١٨) آغا:مصطلح من اصل فارسي يعني السيد أو المسئول، سهيل صابان.

ولمـا رأى "حسـن آغا" إصراري رَجَانـي أن أعدل عن هذا وقال على استحياءٍ:

- وماذا ستكون رؤيا مذنبٍ مثلي حتى تُقَصّ على السلطان.

فما كان من "محمد آغا" إلا أن قال:

- كيف تُخفي رؤياك؟ لا بُدّ أن تقصّ ما رأيتَ، وإلا عُدّ الكتمانُ خيانةً.

عندئذٍ أظهر "حسن آغا" ما كان يُخفي، وقصَّ ما رآه فقال:

- بينمـا نحـن جلوس عند العتبة إذ بالباب يُطـرق، فذهبت لأنظر من بالبـاب، فـإذا به يُفتح، ومِن ورائه جمٌّ غفير وجوهُهُم وضّاءة، وقسَـماتهم عربيّة، وهم وقوفٌ ينتظرون، وبأيديهم الراية والسلاح، وعند مدخل الباب أربعـة نفرٍ وجوهُهُم وضّاءة، والراية بيـد أحدهم، أمَّا الطارق فكان يحمل بيده راية السلطان البيضاء؛ وقال لي:

- أتـدري لـم أتينا ههنـا؟ هذا الجـمّ الغفير الذي رأيـت، هم صحابةُ رسـول الله ﷺ؛ ونحـن رسـل رسـول الله إليكـم، وهو يُقرئ "سـليم خان" السـلام، ويقـول له: هُـبّ، وهلمّ، فقد وُهِبَت لك خدمـة الحرمين، والنفر الأربعة الذين رأيت هم الخلفاء الراشـدون، أوّلهم الصديق، وثانيهم عمر الفاروق، وثالثهم عثمان ذو النورين، وأنا علي بن أبي طالب، بلّـغ "سليم خان" ما أخبرتك به.

وفجأةً غابوا عن الأنظار، وأيقظني أهلي وأنا أتصبّبُ عَرَقًا.

كان "حسن أفندي" يقصّ رؤياه ويبكي.

امتثلتُ لِما أمرني به السلطان، ولما عُدتُ إليه لم يُلقِ بالًا للمهمة التي أوكَلَها إليّ بل كرَّر سؤال الصباح قائلًا:

- ما أعجب أمرك! كيف انقضَت هذه الليلة ولم تر فيها رؤيا؟!

قلت:

- مولاي السلطان، إن خادمكم لم يرَ حلمًا ولكن خادمكم الآخر "حسن" رأى في هذه الليلة حلمًا، لا يُمانع أن أقصّه عليكم إذا أذنتم لي.

وما أن سَمِع السلطان هذه الكلمات حتى دَمَعت عيناه من الفرح، ولما سرَدْتُ له الرؤيا قال:

- كنتَ إذا ما مدحتَه أمامنا قلنا عنك: أَنّك كلَّما رأيتَ شخصًا عابدًا تعتقدُ أنه وليّ الله؟ لكنّنا الآن علمنا أن مدحك له لم يكن عبثًا ولا جُزافًا وإنما هو في محلّه ومكانه.

ثم قال:

- ألمْ أُقُلْ لك: إن مسيرَنا لن يتمّ أبدًا دون تأييدٍ؟ وقال مشيرًا إلى نفسه: كان لأجدادنا نصيبٌ من الولاية.

ثم أردف قائلًا: نحن لسنا مثلهم.

ثم بدأ بتجهيز الحملة على البلاد العربية.

وذكر "سولاك زاده" في إحدى رواياته؛ أن السلطان رأى في تلك الليلة أن رجلًا يُدعى "**حسن**" سيحمل إليه تلك البشرى[١٩].

(١٩) أقسون، المصدر السابق، ص ٢٢٠-٢٢١

وَرَعُ جيش ياووز

قد استراح الجيش العثماني بالقرب من "كبزة (*Gebze*)" بعد أن اجتاز الحدائق والبساتين المثقلة بالعنب الناضج والتفاح الأحمر والفاكهة النادرة.

قال السلطان "ياووز" سليم خان في نفسه: هل قطف جنودي -يا ترى- من التفاح والعنب دون إذن صاحب البستان؟

ثم استدعى قائد الإنكشارية، وأمره قائلًا:

- يا آغا أصدرْنا قرارًا بتفتيش أَخْرَاج عساكر الإنكشارية والسباهيّة[٢٠] والأُجَرَاء، ومن وُجِد في رحله فاكهة فأتوني به.

انطلق قائد الإنكشارية فورًا، وتمّ تفتيش أخراج الجنود، ثم عاد إلى السلطان، وقال:

- مولاي السلطان، تمّ تفتيشُ أخراج الجنود، ولم يُعثَر فيها على أية فاكهة، كما لم نعثر في الأشجار على أثرٍ للقطف.

ولما سمع السلطان هذا الخبر غمرته الفرحةُ والسعادة، ثم تنفّس الصعداء ورفع يديه يدعو قائلًا:

- اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، فأنت من أنعمت عليّ بجيش لا يأكل الحرام.

ثم التفت إلى قائد الإنكشارية قائلًا:

(٢٠) السباهية: هي فرقة من فِرق الجيش وهي فرقة الخيالة والفرسان الذين يتقدّمون الجيش.

- يا آغا، لا يمكن لجيشٍ يأكل الحرام أن يفتح البلاد.

وأردف قائلًا:

- في عهد جدّنا السلطان "محمد خان" -أسكنه الله فسيح جناته- فُتحت إسطنبول وكان فتحها يبدو مستحيلًا، ونحن بإذن المولى سندخل مصر، لن يكون هناك حاكمان للأمة الإسلامية.

خادم الحرمين الشريفين

وقعت المعركة بين الجيش العثماني وجيش المماليك في "مرج دابق" في الرابعِ والعشرين من أغسطس/آب عام (١٥١٦م)، شاعت بين جنود العثمانيين أن جنود قوات المماليك تصل إلى ثمانين ألف جندي، أما الجنود العثمانيون فكانوا نحو ستين ألفًا، ومعهم نحو ثلاثمائة مِدفع، ولما بدأت الحرب اتّخذ السلطان المملوكي "قانصوه الغوري" مكانه على رأس جيشه، وكان عمره أربعةً وثمانين سنة، وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى وُجِدَ جثمانُه من بين القتلى، واستسلم الخليفةُ العباسيّ "المتوكل"، وأشهَرَ علماءُ مصر وقضاتُها أنّ السلطانَ "ياووز" خليفةً للمسلمين فنالوا بذلك المنح السلطانيّة.

وأسفرت هذه الحرب عن تحطيمِ أكبر دولة من دولتين كبيرتين تحالفتا ضدّ الدولة العثمانية في الشرق، وتعزيزِ الحكم العثماني الذي سيستمر أربعة قرون في سورية وفلسطين، وفتحِ طريق مصر والبلاد العربية أمام الدولة العثمانية.

obeikandl.com

وبعد أربعة أيام دخل السلطان "سليم" إلى حلب الشهباء، وبينما كان يؤدّي صلاة الجمعة في الجامع الكبير بحلب[٢١]، نعته الخطيب بـ"حاكم الحرمين الشريفين" -أي حاكم مكّة والمدينة-، فهبّ السلطان "سليم" من مقامهِ إثرَ هذه الكلمة، وقاطع الخطيب قائلًا: ''أنا لست حاكم الحرمين الشريفين وإنما أنا خادمُ الحرمين الشريفين''، فتراجع الخطيب عن كلمته، وجرى في حديثه على نحو ما قال السلطان، فثنى السلطان سجادةً صغيرةً كانت على الأرض، وسجد على التراب سجدةَ شكرٍ، وحمد الله، ولما صلى الجمعة خلع قُفطانه الذي يساوي أكثر من ألف دوقة[٢٢]، وألبسه الخطيبَ.

وفي هذه الواقعة أشار المؤرخ الشهير "هامّر" إلى كمال إيمان السلطان قائلًا:

> ''إننا لا نبالغ إذا ما قلنا أنه كان مثالًا يُقتدى به في تديُّنه عبر التاريخ الإسلامي''[٢٣].

زيارة خليل الرحمن

ولما قضى السلطان "سليم" ثمانيةَ عشر يومًا في **حلب** اتّجه إلى الشام عن طريق حماة وحمص، وقوبِل هناك باحتفالٍ باهِرٍ، وزارَ الجامعَ الأمويّ وأضرحةَ الصحابة والمشايخ، وأمر بالبحث عن ضريح الشيخ "محي الدين بن عربي"، وكان يكنُّ له محبّةً عظيمةً، وأمر ببناء ضريحٍ له يليقُ بمكانته.

(٢١) حسب ما ورد في المصادر التاريخية والروايات التي وصلت إلينا فإن هذه الواقعة حدثت في جامع السلطان الملك المؤيّد بمصر.

(٢٢) الدوقة: اسم عملة ذهبية كانت تصك في البندقة قديمًا، وقيمة الدوقة تعادل الواحدة من (١٠-١٢) فرنكًا.

(٢٣) أقسون، المصدر السابق، المجلد الأول، ص ٢٢٣.

openkanal.com

وفي الخامس عشر من ديسمبر/كانون الأول (١٥١٦م) انطلق الجيش من الشام إلى "الرملة"، وبعد أن وصلوها؛ غادر السلطان مخيّمَ الجيش بهدوءٍ، مصطحبًا معه "إدريس البتليسي" أحد علماء عصره وبعض رجاله الأجلاء، وبجانبه نديمه "حسن جان"، وما حلّ الظلام حتى وصل إلى "القدس"، ورغم برودة الجوّ المتصاعدة إلا أنه قام بزيارة قبر سيدنا "إبراهيم خليل الرحمن"، ثمّ زار كل أضرحة الأنبياء والمقامات المباركة هناك، ثم دعا الله تعالى بقلبٍ مخلصٍ وإيمان عميق، ولو أنه يحبُّ الرياء والسمعة السياسيّة، لَمَا ذهب وأنهى زيارتَه ورجع قبل حلول الفجر، علاوةً على أنه لم يصطحب معه سوى بضعةَ أشخاصٍ قلائل.

وعندما قدم السلطان سليم إلى الشام، قام المماليك بتنصيب "طومان باي" رئيسًا لهم، فأرسل السلطان فرقة من السفراء برئاسة "مراد بك الشركسي" إلى "طومان باي"، وعرض عليه خطة سلام بشرط قبول الأخير أن تتمّ الخُطبة وصكّ النقود باسم السلطان "سليم"، وأن يكون طومان باي تابعًا له، وأعرب عن كراهيته لإراقة دماء المسلمين، لكن عندما انتهك المماليك القوانين الدولية وقاموا بقتل السفير صارت الحرب أمرًا محتّمًا لا بديل له.

لم نأتِ لمُصادرةِ الأموال

وفي تلك الفترة ظهرت الحاجة الماسّة إلى النقود في الجيش، فأرسل مسؤولُ المالية (الدفتردار) مذكّرة تقترحُ على السلطان ما يلي:

"أُتيحت لنا فرصةٌ لسدّ العجز المالي في الخزينة الهمايونيّة، حيث توفّي أحدُ الأمراء "الشركس" الأثرياء في الشام، وله تركة

كبيرة جدًّا ولا يرثه إلا ابن واحد عمره ستة أشهر، فليُصدر سلطاني قرارًا بقتل الطفل وتحويل تلك الثروة إلى الخزينة".

قرأ السلطان تلك المذكرة، فذيل الرسالة بما يلي:

"انظر يا دفترداري[٢٤]، لم نأتِ إلى هنا لمصادرة أموال الناس، إنما جئنا لنحيطهم بالراحة والسكينة؛ الرحمة للمتوفَّى، والبركة لماله، والعافية لابنه، واللعنة على النمّام".

وتنفس "الدفتردار" الصعداء لأن السلطان اكتفى بالجواب، ولم يقطعْ رأسَه.[٢٥]

الخِلافةُ تؤولُ إلى العثمانيّين

جهّز السلطان "ياووز سليم" آلاف الجمال المحملة بالماء كي يُؤمّن ماء الشرب للجيش خلال عبور صحاري "التيه" و"سيناء" و"كاتيا" من ناحية، ومن ناحية أخرى راح يخطط للسيطرة على المواقع الإستراتيجيّة التي تعبر منها الجيوش.

اجتاز الجيش الهمايوني صحراء "كاتيا" في ظرْفِ ثلاثة عشر يومًا، ووصل إلى "الصالحية" التي تُعتبر مفتاحَ مصر، وسرعان ما نجحَ السلطان في عبور صحراء محفوفة بالمخاطر، نهارُها جحيمٌ وليلُها زمهرير، لا يُرى فيها أحياء سوى العقارب والثعابين، ولم يتمكن أيّ مَلِكٍ من اجتيازِها حتى ذلك الحين، ومن عظيمِ لُطْفِ الله هطول المطر في هذه الظروف البيئيّة القاسية، فتصلبت الرمال، وخفّت وطأةُ الحرّ وسهل عراكُها، وبذلك توفَّرَ لديهم ما يحتاجونه من الماء.

(٢٤) وزير المالية في الدولة العثمانية.

(٢٥) أونال، المصدر السابق، ص ٦٨.

obeikandl.com

ورغـم كل السـلبيّات أثبت هذا النجاح أن الجيـشَ العثمانيّ صاحبُ قدرةٍ كبيرةٍ في المعدَّات وفي الإمدادات العسكريّة.

أقـام السـلطان -الـذي عبـر الصحـراء- مخيّـمَ جيشِـهِ فـي منطقـة "الخانكة"(٢٦) قُرْبَ القاهرة، أما "طومان باي" فقد نزل أمام "الرضانية" بقوّةٍ قوامها ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل، ولما رأى السـلطان "سـليم" مدافـعَ جيشِ المماليك المنصوبةَ أمامهـم، التفَّ من وراء جبلِ "المقطّم" وهاجـم "طومـان بـاي" مـن الخلف، فوقَى جيشَـه نيـرانَ تلـك المدافـع، وأمطرت مدافعُ العثمانيّين -التي تتمتّعُ بقدرةٍ عالية على التحرّك في كل الجهات- الجيشَ المملوكيَّ بوابلٍ من النيران(٢٧)، بعد أن أصبحت مدافعُ "طومـان باي" عديمةَ الجدوى لأنها لا تمتلك القدرةَ على التحرّك لشـتّى الجهـات. وكانت حربًا ضروسًـا بـدأت ضحى يوم الثاني والعشـرين من يناير/ كانون الثاني (١٥١٧م) واسـتمرّت حتى المسـاء، وخسر فيها جيشُ المماليك خمسةً وعشرين ألفًا ما بين قتيل وجريح.

ولمـا وضعـتِ الحـرب أوزارَها، نزل السـلطان "سـليم" عند ضريح "قَايْتبَاي"، وراح يُطارِدُ مـع جيشـه الفارين المنهزمين في شـوارع القاهرة، وقاومت المدينة، فلَبِسَ السـلطان درعَه وسـار بنفسـه علـى رأس الجيشِ حتّـى تمكّـنَ من فتح القاهـرة إثرَ حربٍ شـوارع ضارية اسـتمرّت يومين

(٢٦) مدينة الخانكة: من أقدم المدن المصرية التي لها تاريخاً طويلًا، وينسب اسم الخانكة إلى "خانقاه" التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون وهو مكان للعبادة

(٢٧) المدافع التي استعملها السلطان ياووز في حملته على مصر موجودة الآن في كنيسة "إريني" بحي "سلطان أحمد"، وقد يصل طول كل واحد من هذه المدافع إلى سبعة أمتار ونصف بينما يصل عرضها إلى ٢٥ سم، وقد استطاعت شركة "مروب" الألمانية صنع مثل هذه المدافع في عام (١٨٧٥م) أي بعد سنوات متأخرةٍ من عهد "ياووز".

obeikandl.com

بلياليهما، وقد أسفرتِ الحربُ عن مقتل وإصابةِ عددٍ كبير من الجنود حيث لقيَ نحو خمسين ألف جنديّ مصرعهم من كِلا الجيشين العظيمين.

وهكذا أنهى السلطان "ياووز" حكم المماليك، وجعل مصر ولايةً عثمانيّةً ذات امتيازات خاصّة، وأقام أمير الحجاز المملوكي احتفالًا رسميًّا للسلطان "سليم" سلّمَه مفاتيحَ الحرمين وآثار سيدنا الرسول ﷺ المعروفة بـ"الأمانات المقدسة"[٢٨]، وأعلنَ آخرُ خليفةٍ عبّاسيّ "المتوكل على الله" بحضورِ علماء من بقاع العالم الإسلامي كافّة أن الأسرة العبّاسيّة سلَّمت زِمام الخلافة إلى السلطان "سليم"، ثم خَلَعَ العباءةَ السلطانيّةَ وألبسها السلطان "سليم خان"، وبهذا انتقلتِ الخلافةُ إلى السلاطين العثمانيّين بدءًا من ذلك اليوم.

حنكة ياووز

وقد جرَّب الجيش العثماني في هذه الحرب لأول مرّةٍ المدافع المتحرّكة حيث استطاع الجيش إحراز نجاحات كبيرة في الجبهات بفضل تلك المدافع المتطورة.

وبعد الفتح بأيام جيء إلى السلطان "ياووز سليم" بـ"قايتباي" أحد قادة المماليك الأسرى، فقال له السلطان:

- اسمع يا "قايتباي"، كم أعجبني ما رأيت من شجاعتك وإِقْدامِك! وما علمتُ من مقاومتك لجيشي وللصدر الأعظم "سنان"! لكن ذهبَت شجاعتك وإقدامك سدى، وخسرتم مصر في نهاية المطاف.

(٢٨) كتاب "الأمانات المقدسة" نشرت بالعربية في دار النيل.

قايتباي:

– مولاي السلطان، إنَّ إقدامكم وشجاعتكم معروفةٌ لدينا، ولكنّ سببَ انهيارِ جيشِنا أمام جنودِكم هي مدافعُكم التي تدمّر كلّ شيءٍ ولا شكّ أن تلك المدافع هي سبب خسارتنا الحرب، وفي عهد السلطان "قانصوه الغوري" أحضر أحد البرابرة مدفعًا جديدًا من "البندقيّة" ليبيعه لدولتِنا، فأبى كبراءُ الدولة أن يشتروه متعلّلين بأن رسولنا محمّدًا ﷺ أمرَ بالقتال بالسيف والسهم، فصاح البربري قائلًا:

– سيرى من يعيش أن هذا الوطن سيُؤخذ من أيديكم من قِبَلِ أيّ دولةٍ تمتلك تلك المدافع

ويا للأسف لقد أصاب البربري.

السلطان "ياووز":

– صحيح أن القوّة لله جميعًا، لكن ما دمتم تتّبعون القرآن والسُنة بهذا القدر فلمَ غفلتم عن أمر رسولنا ﷺ بالاستعداد للعدو بما يدفع عدوانه وخطره؟ لقد مضت تسعمائة سنة على ما قاله سيدنا الرسول ﷺ في هذا الشأن، وكان عصرهم عصر السيف والسهم، أما عصرُنا فهو عصر المدفع[٢٩].

عودة "ياووز"

قضى الجيش في مصر سبعة أشهر، أي مرَّت سنةٌ وثلاثة أشهر على الجيش منذ أن غادر إسطنبول، فالجميع الآن في شوقٍ إلى

(٢٩) أونال، المصدر السابق، ص ٦٨-٦٩.

الأناضول، لكن لم يجرؤْ أحد على البوح بهذا للسلطان، فقد أورث طولُ الإقامة في مصر وجهاءَ الدولة وأرباب الديوان شوقًا إلى وطنهم الأُمّ، وبرّح بهم الشوق لهواء الأناضول ومائه، فقال بعض أصحاب المقامات الرفيعة لـ"كمال باشا زاده" قاضي عسكر الأناضول الذي كان السلطان يحبُّ مجالسته:

- حتى متى سنعاني أشواق الغربة في هذه البلاد؟ هلّا تكلّم السلطان وتحثّه على الأوبة إلى الأناضول؟

وذات يوم بينما كان السلطان "ياووز سليم" بصحبة الشيخ "كمال باشا زاده" على صهوة الجواد سأله قائلًا:

- ما أخبارُ الجنود أيُّها المعلِّم؟

فقال الشيخ "كمال":

- مولاي السلطان، سمعتُ عامّة الجند وهم يسقون حيواناتهم من النيل، وأحدهم يُنشد على لسانهم:

ما الذي بَقِي لنا من مُلك العرب
وكم قضينا بأرض الشام وحلب
وكلُّ أهل الدنيا في رَغَدٍ وطرب
هلمّ يا أخي إلى الأناضول ودع عنك العتب

غمرت السلطانَ الفرحةُ بهذا الحِدَاء، وقال مبتسمًا:

- لم يعد ثمةَ ما يستدعي البقاء، هيّا بنا نعود.

وتقـررت العودة نزولًا عند رغبة الجنـود، وغادر "ياووز" القاهرةَ يوم الثالث عشر من سبتمبر/أيلول (١٥١٧م)، واتجه فورًا ناحية الشام[٣٠].

هذا الوحل شرف عظيم لي

استغرق السفر أيامًا ولما بلغوا "أضنه" بدأ المطر يهطل بغزارة، وأوى الجميـع إلى الخيام، وغدت المنطقة بحرًا من الوحل، ولما توقّف هطولُ الأمطار واصلوا سـيرهم من جديد، وكان السـلطان "سليم" يسير بمحاذاة المعلم "كمال باشـا زاده"، وبينما هما كذلك إذا بجواد المعلم يندفـع إلى الأمام قليلًا فتتعثر قدمه، ولولا أنّ العالِم لم يأخذ بلجام فرسه لَهَوى على الأرض، ولما وقـع بصره على قفطان السـلطان رأى عليه وحلًا تطاير من تحـت خفّ حصانه عندما تعثر، فارتعش المعلّم خوفًا، ولم يدرِ ماذا عليه أن يفعل، وأخذ يعتذر من السـلطان مرارًا وتكرارًا؛ وهرع الندماء لتنظيفِ الوحل من على قفطان السلطان، ولما رأى السلطان الخوف والحزن على وجه معلمه نادى ندماءه آمرًا إياهم:

- لا، لا تنظفوه.

ثم التفت إلى مساعديه قائلًا:

- عليكم أن تحتفظوا بقفطاني هذا، ولتضعوه فوق نعشـي عند موتي، فالوحلُ المتطايرُ من خُفِّ فرس العلماء وسـامٌ كبيرٌ لنا، وإنّ هذا لَشـرف عظيم لي.

(٣٠) الأستاذ الدكتور أحمد أوغور، ياووز سلطان سليم، مدينة قيصري ١٩٩٩م، ص ١٠٦-١٠٧.

وبهذا أعرب ياووز عما يكنه من تقدير عظيم للعلم والعلماء، ثم عاودوا السير، ولما وصلوا إلى خيامهم، أرسل السلطان خمسمائة قطعة ذهبية عطيّة لكمال باشا زاده[٣١].

لم نفعل هذا من أجل الهتاف

كانت مكتبة السلطان الخاصّة تنتقلُ معه جنبًا إلى جنب خلال الحملة، وكان يقرأ بنفسه حينًا ويجعل ندماءَه يقرؤون وهو يسمع حينًا آخر، وفي الطريق كان السلطان يأمر إما بتأليف الكتب أو الترجمة أو النسخ، ويَتجاذبُ السلطان أطراف الحديث مع أهل العلم والسياسة[٣٢].

وعندما لاح وجه السلطان سليم خان في سماء إسطنبول عام (١٥١٨م) تزاحم أهالي المدينة على الطرقات تحملهم سعادة عارمة، وهم يهتفون لحاكمهم وأوشكوا أن يضموه إلى صدورهم، ولكن السلطان العظيم أراد أن يدفنَ غرورَ نفسه فقال:

- لم نصبر على تلك المشقّة من أجل الهتاف، إنما ابتغينا بذلك مرضاة الله سبحانه.

ولما خيّم الظلام عَبَرَ البحرَ وتسلّل إلى القصر بهدوءٍ دون أن يراه أحد.

المرض الخبيث

في عام (١٥٢٠م) بينما كان السلطان يتنزّه في حديقة القصر قبل أيّامٍ

(٣١) أوغور، المصدر السابق، ص ١١٠.

(٣٢) أوغور، المصدر السابق، ص ١٠٩.

obeikandl.com

من توجّهه إلى "أدرنه"، ذَكَرَ لنديمه "حسن جان" أنه يشعر بألم في ظهره وقال له:

- كأن شوكة مغروزة في ظهري، تؤلمني.

فقال "حسن جان" جوابًا لشكوى السلطان:

- لعل شوكة سقطت من الشجر فعلقت بقميصكم.

لقد طلب "حسن جان" من السلطان الجلوس على المقعد، ثم أخذ يتفحّصُ ظهرَه بيده، إلا أنه لم يعثرْ على شيء، ثم اشتكى السلطان بعد فترةٍ قليلةٍ من الألم نفسِه، فكشف حسن جان ظهره كلّه وتفحصه، فرأى خرّاجًا صغيرًا جدًّا بزغ رأسه الأبيض من بين شعيرات ظهره، وكان ذلك الخراج يسبب له الأوجاع(٣٣).

ساعة الرحيل إلى المولى

كبر الخرّاج سريعًا وتعمّق بمرور الوقت، وأصبح يومًا بعد يوم يُهدّد حياة السلطان، ولما انطلق من إسطنبول إلى أدرنه في صيف (١٥٢٠م) ساءت صحته كثيرًا، واضطروا إلى التوقّف، ونصبوا خيام الجيش قرب منطقة "جورلي".

تنهد الحاكم العظيم وزفر ثم قال لمن حوله:

- لا سفرَ لنا بعد اليوم إلا إلى الآخرة.

(٣٣) صلاح الدين طنسال، ياووز سلطان سليم، أنقره ١٩٦٩م، ص ٢٤٩.

obeikandl.com

وهذه الكلمات الأخيرة قد أحزنت مَن في الخيمة حزنًا شديدًا، ولم يستطِع القادةُ المكوثَ بين يديه فانصرفوا، وعندئذ التفت السلطان إلى نديمه وقال:

- ماذا أصابكم يا "حسن جان"؟

فقال "حسن":

- مولاي السلطان، من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءَه.

لم يركن السلطان العظيم يومًا إلى الدنيا، لذا احتدّ قائلًا:

- ألا تعلم أننا ما عملنا عملًا إلا ابتغاءَ وجهِ الله تعالى وما قصّرنا في حبنا له، فماذا رأيت منا لتقول ذلك؟

فاستحى "حسن جان" وقال:

- حاشاك يا مولاي السلطان، لم أعنِ ما فهمتم، بل أقصد أن هذه ساعة على المرء أن يلجأ فيها إلى الله، ويستسلمَ له ويصبر.

رقود في سكينة

أفنى السلطان عمره الذى ناهز الخمسين عامًا في الجهاد على صهوة جواده وداخل خيمته المتواضعة، وكان حظّ السلطنة من عمره هذا ثمانية أعوام وأربعةَ أشهر وثمان وعشرين يومًا، وفارق الحياة في الثاني والعشرين من سبتمبر/ أيلول عام (١٥٢٠م) في يومٍ خريفيّ قارس.

يقع ضريح السلطان "ياووز سليم" أعلى تلٍّ يُطِلُّ على الخليج أمام محراب جامع سُمِّي باسمه في حيّ الفاتح بإسطنبول.

وقد ثُبتَ ضريحُ السلطان "سليم" فوقَ قاعدةٍ رخاميّة مُحاطَةٍ بسياج مزخرفة وسط مقبرته، ويظهر من خلف الزجاج المحيط بالتابوت قفطانُ السلطان الملوَّثُ بالوحل الذي تطايَرَ من خفِّ فرَسِ الشيخ "كمال"، ولونهُ يميلُ إلى الإصفرار.

وتشيرُ الكتابة المرقومة على لوحةٍ من الخزف الصينيّ إلى أنَّ اكتمالَ الضريح كان في يوم العشرين من نوفمبر/تشرين الثاني (١٥٢٢م) بعد وفاة السلطان بسنتين وشهرين تقريبًا بأمر ابنه السلطان "سليمان القانوني".

هذا البطل العظيم القائل ''عرش هذه الدنيا أكبر من أن يتربّع عليه سلطان واحد، وأصغر من اثنين'' يرقد الآن في هدوء تكلِّله السكينة في ضريح بهيّ وتُحيطُ به المروج والزهور وأشجار السرو في حديقة تحظى بعناية فائقة.

obeikandl.com

إنه نسر البحر الذي لا يُغلَب، إنه البطل الذي دمّر بأسطوله المكون من مائةٍ واثنتين وعشرين سفينة أسطولاً قوامه ستمائة سفينة يقوده «أندريا دوريا» الصليبيّ في «براوزة (Preveze)».

لقد كان يقول: "إيماننا هو أعظم ما نملكه من عتاد متفوِّق".

إنه القائد الذي اقترح على الدولة العليّة غزوَ «أمريكا»، وأصبح اسمُهُ يُرعب أساطيل البحر الأبيض المتوسط، إلى أن فاز بلقب «أعظم بحّارة العالم»، وعندما مات نعاه التاريخ بأن "رئيس البحار قد مات".

إنَّه أقوى بحارة العثمانيّين، وصاحب نصر «براوزة»،

إنه البطل «خير الدين باربروس باشا».